البطل

قصة بقلم ضياء الشرقاوي

أريد ان اكون انسانا ذا اهمية .. ذا خطورة .. كم يبلغ بي العذاب حينما ارى ان وجودي كعدمي تماما .. أشياء كريهة تجذبني وأجذبها.. .. لقد كرهت كل شيء حينما بدا لي أن لا امل في تحقيق ما اريده..

أفكر جديا في أن أترك عمي مع ابن عمي . انه يكبرني بعشرين سنة تقريبا . ونحن الاثنين مغتربان هنا في القاهرة . انه يفتح « كشكا » لبيع الصحف والمجلات بميدان الجيزة . وحينما قدمت اليه في القاهرة التمس عملا قذف بي مكانه في الكشك واستسلم للنوم والكسل في بيته لا يغادره الا لاشياء لا تتعلق بالعمل مطلقا . وكان يرسل لي الطعام بانتظام. فرصة ذهبية استغلها هذا الحيوان .. وبعد فترة لحق بي أخي وله من العمر تسع سنوات اذ ماتت امي .. وافتر فم ابن العم عن ابتسامة عريضة . وألقى بمهام اخرى على عاتقه تزيد من ربحه ، واصبحنا نحن الاثنين ندور في الساقية معا .. كل اجرنا هو الطعام الذي يرسله لنا.. سأتركه وأبحث عن عمل اخر .. عمل ذي قيمة واهمية .. ليس مثل عملي هذا الذي اذا تخلفت عنه لم تنقص الدنيا او تزيد او تهتز حتى ولا تهتم .. كم كانت أمنيتي أن أجد ـ بعد كل مرة اتخلف فيها ـ الناس ينتظرونني أمام الكشك واليأس العميق يرتسم فوق وجوههم .. ومخايل الامل تتراقص في عيونهم .. وحينما يرونني يندفعون الي كأنني رحمة من السماء .. أو شيء ذو أهمية وخطورة .. ولكن لا شيء من هذا حدث مطلقا . فهناك مئات غيري يبيعون الصحف ..

لقد أجهدني التفكير فيما أريد أن اكونه على وجه التحديد ..نوع العمل الذي سأقوم به .. ولكني لا أتبينه في وضوح وانما هو احساس عام .. قوي .. لا أدري لماذا انبهر امام الاعمال ذات الاهمية والخطورة التي تصك تيار الحياة كحجر كبير يثير الرشاش عاليا .. ويفتح لها الناس أعينهم باهتمام ملحوظ ويتتبعونها في خوف وامل . واحصر تفكيرهم ولو للحظة واحدة في الطريق الذي ارسمه لهم .. لذلك أقدس كل الناس الذين يثيرون مثل هذا الاهتمام .. ذي الخطورة التي أعنيها .. وأتشمم الطرق التي اتبعوها فأجد بعضها بعيد المنال وبعضها الاخر تلعب معه الظروف .. ظروف خاصة أشبه بالمصادفات القليلة الوقوع.. أمنيات تتراقص في رأسي ويبدو اغلبها مضحكا .. مثل ان اكون رئيس دولة كبيرة أهدد كل لحظة فينزعج الناس ويتوترون ويظلون يتتبعون ما أصرح به من احاديث .. وينابعون تحركاتي في اهتمام .. ينحصر كل شي فيهم في محوري .. أكون انا المحور الذي يدور حوله تفكيرهم وآمالهم وكل شيء .. كل شيء .. ثم أبعدهم عن البركان الذي وضعتهم فوقه .. كأنني ساحر .. ساحر مهيب شديد الخطورة .. ولكن أين لي أن أكون رئيس تلك الدولة .. لو كانت هناك طرق الى المكانة العظيمة تتيسر لي لاندفعت اليها ولو كلفتني حياتي على شرط ان اتمتع بتلك المكانة فترة اشبع فيها رغباتي .. ولكن كل الرؤساء من ذوي المكانات العالية ابناء نبلاء او امراء او اولياء عهد .. او ضباط كبار في الجيش .. او اي أحد في مثل مكانتهم .. من أنا بجانبهم ؟ انا انسان لا امتلك غير جسد جاف نحيل وعشرين عاما من العمر وآمال ذات خطورة . لم يعد في العالم شيء يستحق المغامرة .. كل القارات المجهولة قد اكتشفت، وكل القمم التي تحدت ارادة الانسان وقوته ووقفت في شمم وكبرياء قد قهرت . آوه .. كأننا قد اصبحنا في عالم لم يعد للانسان فيه قيمة تذكر .. ماذا يمكنني ان افعل ؟.. انا اكره ان امسك مدفعا واطلقه على الناس وتنشر الصحف والمجلات اسمي وصورتي واخباري .. ولكنني سأنهي نهاية بائسة مجللة بالعار والخزي .. لا .. ليس هذا ما أريده .. ان الضيق يخنقني .. لا أجد متنفسا لامالي .. كأنني اصارع قوى مجهولة تقول لي في اصرار : « ستظل هكذا تافها » ولكنني أصرخ فيها: ـ لن أكون ذلك .. بل سأكون رجلا هائلا ذا خطورة .. ذا خطورة .. أتسمعين ؟

ليت تلك القوى كانت شيئا مجسدا اذن ، لصارعتها الى النهاية..

* * *

وذهبت الى ابن عمي اريد ان اسحقه ، كأن لا أهمية له مطلقا في هذه الدنيا .. يمضي أيامه في نوم وأعمال تبدو لي مضحكة .. اعمال لا قيمة لها .. كأنه حشرة كبيرة ناطقة يجب ابادتها ، وقد نظر الي بلا اهتمام وهذا ما ضايقني .انني اريد ان أثيره .. أن أفزعه .. ان أجعله يفكر في باهتمام ولو للحظات ويحس بخطورتي واهميتي ..واصبح معقد خواطره كلها .. واماله وخوفه .. واعددت نفسي لذلك الموقف تماما.. ثم قلت له :

ـ سأترك عملي معك .

ونظرت اليه في تدقيق أفحص ما يطفو على وجهه من خواطر.

ولكنه قال بلا اهتمام : ـ لماذا ؟

قلت في مرارة وضيق : ـ هكذا .

قال كأنه صخرة لا يثيرها شيء : ـ ليست لديك اسباب .

ـ : لا .

ـ : اذن .. لماذا تريد ان تترك العمل معي ؟

وكدت ابتسم ولكني تمالكت نفسي جيدا .. ها هو يكاد يتوسل الي الا اترك العمل حتى لا يموت هو وزوجته واولاده واخته جوعا .. ان حياتهم جميعا في يدي .. ها قد اكتشفت ميدانا امارس فيه بطولتي واحقق بعض اماني .. واجبته في كبرياء تليق بالابطال : ـ هذه ارادتي.

وانتظرت الاحداث الجسام التي ستتبع ذلك ، وقد سرت النشوة في كياني دافئة لذيذة .

وسأل وقد اعتدل في جلسته : ـ وأخوك ايضا سيترك العمل ؟

وأحسست ببعض الضيق لذلك السؤال .. اني مجبر ان اقول له نعم لكي أثير فزعه .. وهذا معناه ان هناك من يشاركني البطولة ويقاسمني فيها .. انه سيستخدم اخي اذا ما تركته وبذلك لن أثير شيئا فيه.. وطال صمتي .. لا اريد ان يقاسمني البطولة احد .. وبدون اخي لن اصنع تلك البطولة .. أمر يضايق ووددت ان انطلق من وجهه.. ولكني تحاملت على نفسي وقلت له : ـ لا .. لن يترك أخي العمل.

فقال في كسل : ـ اذن .. اذهب كما شئت .

واصبحت كتلة هائلة من الغضب والحقد .. لم اعد ذا قيمة .. وصحت فيه وقد رضيت ان يشاركني اخي تلك البطولة من اجل ان انتقم من هذا الانسان : ـ نعم .. سيترك العمل .

وهز رأسه في بلادة وحاصرته بنظراتي .. ورأيت الاهتمام في

عينيه وعلى وجهه .. وخامرتني النشوة مرة اخرى ولكن ليس بالدرجة التي اريدها .. وبسهولة تفيقل قال : كما تريدان .

وهكذا بكلمات قليلة بليدة هدم بطولتنا .. هذا الاحمق .. كنت اعتقد انه سيطلب مني بالحاح ان نظل نعمل معه .. فأأبى واتمنع ... فيتوسل ويتمسح في ويغريني . ولكن لم يحدث شيء من هذا . ومن العار ان اتوسل اليه انا . حقا ليس هناك عمل اخر ينتظرني او ينتظر اخي .. سنصبح بلا عمل.. وليس معنا مليم واحد نعتمد عليه حتى نجد عملا .. ولا اقارب لنا غير ابن عمي هذا في تلك المدينة الكبيرة .. التراجع أمر سهل . يا للهول ! اني أقذف بنفسي في النيل ولا اتراجع.. كبريائي .. كبرياء البطل لا تسمح لي بذلك والا اصبحت اقل من انسان عادي .. وهذا ما آباه على نفسي . وانطلقت واخي الصغير وهو ينظر الي في تساؤل . ولكن بم اجيبه .. انه لم يعترض على ما فعلته ولا حتى عرف لماذا اخذته من هناك ومنعته عن العمل مع ابن عمه ..واستقر بنا المقام في حديقة وقد حل بنا التعب والارهاق ..وجلس أخي بجانبي صامتا لا يتكلم ، وفكرت مرة اخرى في أن ارجع الى ابن عمي وقد قرصني الجوع، ولكني نهرت نفسي وحقدت على ضعفها : لن نرجع، ولكن ما ذنب اخي الصغير ؟ انه يحس بالجوع بالتأكيد فلم نتناول طعاما منذ الصباح ونحن الان بعد الظهر .. اني خجل من أن أساله . اريد ان أساله . ولكن هذه المغامرة كبيرة . انه بالتأكيد جوعان .. وما الفائدة من سؤاله غير الاحزان ؟ اني حزين فعلا ، هذا امر مقيت ..

وبلا وعي سألته : ـ هل انت جائع ؟

فنظر الي نظرات حزينة ذليلة بائسة واجاب : ـ نعم.

يا لشقائي ! اخي الصغير يتألم من الجوع كما أتألم انا .. وانا السبب .. سأكون اكبر نذل اذا ما تركته هكذا يتعذب .. انا الذي عرضته لهذا العذاب .. لا اقبل ذلك .. سأبحث عن صديق ناوي عنده حتى اجد عملا سريعا .. أي عمل حتى لا يجوع اخي.

وجدت في اليوم التالي عملا مثل عملي السابق وهو توزيع الصحف .. آه لقد تألمت امس الما لم اشعر بمثله من قبل ، ألم هائل لجوع اخي الصغير .. كم أحسست بالسعادة حينما شعرت بانه لن يجوع بعد .. فقد عملت من اجله .. من اجله هو.. قبل ان يكون من اجلي..وشعرت بانني احمل مسؤوليته على عاتقي ويجب علي ان احسن حملها . انني اخاف العار ، وأحب البطولة ، عالم جديد تتفتح امامي ابوابه ، عالم جديد من البطولة .. بطولة من لون جديد ليست من لون التهديد بافناء العالم .. او كشف قارات مجهولة في المحيطات .. انه بطولة المسؤولية .. كم هي لذيذة .. انني أعمل باصرار من اجل هذه البطولة .. وارى نصري في ابتسامات اخي الصغير ورضائه وشبعه .

هكذا ظللت انتشي بتلك البطولة لسنوات قليلة .. وانتظمت في عملي من اجله واصررت على التمسك به واحراز النجاح في ميدانه .. كنت كتلة مشتعلة من الاصرار والعزيمة والرضاء بالبطولة .. كم كنت سعيدا حينما كنت احس بان انتصاراتي لها هدف هائل هو سعادة اخي الصغير الذي انا مسؤول عنه .. ولكن اخي قد كبر وعمل .. ومرة اخرى يشاركني البطولة .. لقد فترت حماستي .. وبدأ الضيق يغزوني .. لقد اصبح يعيل نفسه ولم اعد احمل تلك المسؤولية اللذيذة التي ربطت اليها اعمالي كلها .. وتمنيت لو منعته من العمل حتى اعيله من جديد .. واكون بطلا مرة اخرى .. ولكنني تأكدت من انها ستكون بطولة مفتعلة .. مزيفة .. لا طعم لها .. ومر خاطر برأسي .. مر سريعا ولكني تعلقت به .. وتشبثت باصرار .. وقبلته دون اعتراض .. قبلته بكل كياني وارادتي .. سأتزوج .. انه عمل بطولي .. حتى مجرد التفكير فيه عمل بطولي .. انه شيء مقدس ان اكون اسرة واكون صاحب بيت .. أسعى من اجل ارضاء زوجتي وسعادتها .. ثم تزداد المسؤولية ، يصبح سعيي من اجلها ومن اجل الاولاد الذين سيتتابعون فيما بعد . يا للسماء ! سيكون البيت بعد سنوات ممتلئا بالاولاد ، واكون مسؤولا عنهم جميعا ، عن كل شيء يتعلق بهم ، كل شيء .. سعادتهم وتحقيق امالهم . وسيكبرون وتزداد مطالبهم وتكبر آمالي .. يجب ان اجعل منهم جميعا اناسا عظماء ذوي اهمية وخطورة .. ان يكونوا افضل مني بكثير وكثير .. ان ذلك سيحتاج الى مجهود عظيم .. لي الارادة والعزيمة للقيام بتلك المسؤوليات الهائلة .. كم كنت احس بالسعادة وانا مسؤول عن اخي الصغير فقط .. فما بالك وقد اصبحت مسؤولا عن اسرة كثيرة العدد .. ستة او ثمانية مثلا .. سيكون هذا اعظم عمل بطولي ذي خطورة واهمية بالغة .. واحسست بقلبي يهتز طربا لذلك الخاطر ..

وسعيت الى ابن عمي لاخطب اخته ..

القاهرة

ضياء الشرقاوي

الاشتراكية والأدب

ومقالات أخرى

تاليف

الدكتور لويس عوض

دراسات معمقة عن النزعة الاشتراكية
كما تبدو في آثار اكبر الكتاب العالميين

صدر حديثا عن دار الآداب

الثمن ٣٥٠ ق.ل